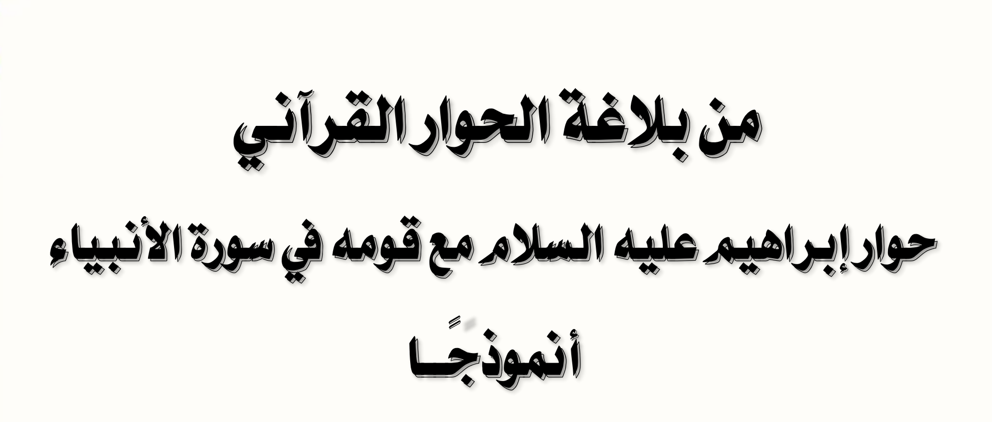


من بلاغة الحوار القرآني

حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه في سورة الأنبياء

أنموذجًا

إعداد الدكتورة

نجوى سيد سيد إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات بني سويف - جامعة الأزهر


بسم الله الرحمن الرحيم

من بلاغة الحوار القرآني، حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه في سورة الأنبياء أنموذجًا

نجوى سيد سيد إبراهيم

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بني سويف، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: njwya1343@gmail.com

ملخص البحث

يهدف البحث إلى استعراض بعض الجوانب البلاغية في حوار إبراهيم -عليه السلام- مع قومه في سورة الأنبياء، وتسليط الضوء على أبرز الوسائل البيانية وأساليب الإقناع التي وظفها الخليل -عليه السلام- واستطاع من خلالها أن يقيم عليهم الحجة، ويثبت لهم بالأدلة الحسية والعقلية صحة دعواه وبيان ما هم عليه من ضلال، وقد عَوَّلْتُ في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي يعني بالكشف عن طرق الصياغة، وآثارها في تصوير المعاني، ومن أبرز النتائج التي تم التوصل إليها:

-إن من أهم أهداف الحوار وأسمى غاياته أنه وسيلةٌ لنشر الدعوة وبسطها، وردُّ شبهات المعاندين، ومحاولة إقناعهم بالحجة والدليل الواضحين.

-لا بدّ من إرساء دعائم الحوار في كل شأن من شؤون حياتنا، بداية من الحوار الأسري، والحوار بين أفراد المجتمع الواحد، والحوار بين أفراد المجتمع وقادتهم وصولا إلى الحوار بين الأمة المسلمة وغيرها من الأمم؛ لأن الحوار هو الحل الأمثل للعديد من المشاكل التي تواجه المجتمعات والأمم.

-يجب على الداعي إلى الله تعالى التحلي بالصبر، والثبات على الحق، واليقين بنصر الله، وألا يكسر من عزمه قوةُ الباطل وبطشه، ولا يجعل لليأس سبيلا إلى نفسه، فنصر الله واقع لا محالة.

-قد حَفَلت الآيات الكريمات -موضوع الدراسة- بالعديد من السمات والأساليب البلاغية التي تكررت، وكان لها دور مؤثر وبارز في تشكيل الموقف الحواري، وهي: التوكيد- التقديم والتأخير- الاستفهام- الفصل- الإيجاز بالحذف- الاستعارة- التعريض.

الكلمات المفتاحية: الحوار- البلاغة- حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه.

From Rhetoric of the Qur'anic Dialogue: The Dialogue of Prophet Ibrahim (Peace be upon him) and his People as revealed in Surat *Al- Anbiya* (Chapter of Prophets), as a Model

By: Nagwa Sayed Sayed Ibrahim
Department of Rhetoric and Criticism
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Women in Beni Suef
Azhar University

Abstract

This research aims at displaying some rhetorical aspects in the dialogue of prophet Ibrahim (peace be upon him) with his people as revealed Surat *Al-Anbiya* (chapter of the prophets). It also sheds light upon the most outstanding rhetorical means and the persuasive techniques employed by prophet Ibrahim (peace be upon him). Utilizing those means and techniques, prophet Ibrahim (peace be upon him) managed to base his argument and introduce concrete, and mental evidence on the truthfulness of his call for Allah. In addition, Prophet Ibrahim (peace be upon him) managed to uncover the aberrance of his people. This research relies on the descriptive and analytical approaches which trace ways of formulation and their impact upon meaning. By the end of the research, the researcher has summed up the most important findings. For example, one of the most important objectives of the dialogue is its being a means of spreading the call for Allah widely refuting the suspicions of the unreasonable contenders and trying to persuade them through clear evidence. It is also necessary to establish pillars of dialogue in all affairs of our life starting from familial dialogue, dialogue in between the individuals of the same society, the dialogue in between the individuals and their leaders unto the dialogue in between the Islamic nation and other nations because dialogue represents the ideal solution for many problems which face nations and societies. Moreover, the one who calls for Allah should be patient, adherent to righteousness, be confident of Allah's victory, not to allow the power of falsehood to shake his determination, not to let despair find its way to him because the victory of Allah would certainly take place. The Holy verses, the object of this study, abound in rhetorical styles and features that repeatedly appeared in the Holy Qur'an as they have an influential and apparent role in shaping the dialogic situation. Those features and styles include emphasis, anastrophe, interrogation, separation, ellipses, metaphor, and euphemism.

Key words: dialogue, rhetoric, the dialogue of Ibrahim (peace be upon him) with his people.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الحوار هو لغة التفاهم الأولى، وسبيل التواصل بين الأفراد والجماعات، وقد عنى القرآن الكريم به عناية كبيرة؛ فكان من أهم الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في بيان الحق وإظهاره، ودحض دعوى الشرك، واستئصالها من الجذور، حيث كان الحوار الأداة الأولى للأنبياء وأتباعهم في بسط الدعوة، ونشرها بطريقة الحوار البناء المدعم بالأدلة والبراهين الساطعة، وقد نقل لنا القرآن الكريم ما دار بين أصحاب الدعوة من الأنبياء وأتباعهم وبين خصومهم بكل شفافية وموضوعية، حيث نقل الرأي والرأي الآخر رغم فساد آراء الخصوم، ولم يفرض الدعاة دعواهم بالقوة أو الإكراه، بل كان سبيلهم الحوار والإقناع المبني على الحجج المقنعة والبراهين الواضحة، (والقرآن يجعل كل قضاياه سبيلها الحوار، ويجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائما عليه، ولا يجعل من القوة سبيلا قط إلى التعامل مع المخالفين، وإنما يجعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق) [(١)].

أهمية الموضوع:

ومن هنا تكمن **أهمية الحوار** –موضوع البحث– في حياتنا؛ لأنه من أنجح الوسائل، وأقصر الطرق لدعوة الناس إلى دين الله، والدفاع عنه ضد المشككين، كما أنه السبيل الأمثل لتقريب المفاهيم بين أفراد الأسرة الواحدة، والمجتمع الواحد، والقضاء على كثير من الخلافات التي تهدد وحدتنا، وتسعى لمحو هويتنا.

وكان وراء اختيار الموضوع بواعث عدة:

١ –خدمة كتاب الله –عزَّ وجلَّ– وإبراز منحى من مناحي إعجازه البياني.

(١) مفهوم الحوار في القرآن الكريم وانعكاساته التربوية، محمد عدنان علي القضاة، رسالة ماجستير، إشراف أ.د حسن أحمد الحياري: ٢، جامعة اليرموك، كلية التربية قسم الإدارة أصول التربية، ٢٠٠٣م.

٢- الدعوة إلى ترسيخ دعائم الحوار البناء، وممارسته على أرض الواقع ممارسة عملية تحقق التواصل والتفاهم بين الأفراد والجماعات.

٣- تسليط الضوء على أبرز الوسائل البيانية وأساليب الإقناع التي وظفها الخليل -عليه السلام- واستطاع من خلالها أن يقيم عليهم الحجة، ويثبت لهم بالأدلة صحة دعواه وبيان ما هم عليه من ضلال.

لذا كان اختياري لهذا الموضوع (من بلاغة الحوار القرآني، حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه في سورة الأنبياء أنموذجًا)، والذي يهدف إلى استعراض بعض الجوانب البلاغية في حوار إبراهيم -عليه السلام- مع قومه في سورة الأنبياء، حيث ضرب -عليه السلام- المثل الأعلى للمحاور الفطن الذي ينطلق في حواره مرتكزا على الأدلة الحسية والعقلية التي تثبت صحة دعواه، وتدحض دعوى خصومه.

الدراسات السابقة:

من الدراسات السابقة عن الحوار:

١-الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى محمد حسن بن أحمد زمزمي، دار التربية والتراث للنشر- مكة المكرمة، ط١ ١٩٩٤م.

٢-الحوار في الحديث النبوي الشريف دراسة تحليلية بلاغية لأحاديث مختارة، رسالة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية تخصص البلاغة والنقد، إعداد: علوة بنت عابد عبد الله الحساني، إشراف أ.د عبد الموجود متولي بهنسي، كلية الآداب والعلوم الإدارية للبنات بمكة المكرمة- جامعة أم القرى، ١٤٣٠هـ.

٣- الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، دار الوطن بالرياض، ط١ ١٤١٣هـ.

٤- الحوار مع المرأة في قصص الأنبياء في القرآن الكريم دراسة بلاغية، د ماجدة يسري أحمد السيد، بحث بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية- المجلد السادس من العدد الثامن والعشرين.

٥- لغة الحوار في القرآن الكريم دراسة وظيفية أسلوبية، د فوز سُهيل كامل نزال، الجوهرة للنشر والتوزيع عمان- الأردن، ط١ ٢٠٠٣م.

منهج البحث: قد عَوَّلْتُ في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي يعني بالكشف عن طرق الصياغة، وآثارها في تصوير المعاني.

خطة البحث: قد بنيت البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

المقدمة: تتضمن عنوان البحث وأهميته.

التمهيد: ويتضمن مفهوم الحوار، ومفهوم الجدل، والفرق بينهما.

المبحث الأول: التنازل مع الخصم وحمله على الإقرار بالحق.

ويتضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: أطراف الحوار، ودعوى كل طرف.

المطلب الثاني: بيان أوجه الزيف في دعوى الخصم.

المطلب الثالث: إثبات بطلان دعوى الخصم بالدليل الحسي.

المطلب الرابع: إثبات بطلان دعوى الخصم بالدليل العقلي، ودفعه إلى الإقرار بالحق.

المبحث الثاني: إثبات القدرة المطلقة لله رب العالمين أمام عجز معبوداتهم.

ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: عرض الدعوى على الخصم والتدليل على صحتها.

المطلب الثاني: لجوء الخصم إلى استعمال القوة الغاشمة عند انعدام الحجة.

المطلب الثالث: تأييد الله عز وجل لنبيه، وردُّ كيد الكائدين.

الخاتمة: تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسأل التوفيق والسداد، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يستعملنا في طاعته وخدمة كتابه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

التمهيد

(في بيان مفهوم الحوار ومفهوم الجدل والفرق بينهما)

أولا: يدور مفهوم مادة (حور) في معاجم اللغة حول معنى الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والتجاوب، وتراجع الكلام بين المتحاورين.

يقول ابن فارس: "حَوَرَ: الحاء والواو والراء ثلاثةُ أُصُولٍ: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث: أن يدورَ الشيءُ دَوْرًا، فأمَّا الأولُ فالحَوَرُ: شِدَّةُ بياضِ العينِ في شِدَّةِ سوادِها، والحَوَرُ أنْ تَسْوَدَّ العينُ كُلُّها مثلَ الظباءِ والبقرِ، وليس في بني آدمَ حَوَرٌ، ويقال لأصحابِ عيسى -عليه السلام- الحَوَاريُّون؛ لأنَّهم كانوا يُحَوِّرون الثيابَ أي يُبيِّضُونها، وأمَّا الثاني فالحَوْرُ: مصدرُ حار حَوْرًا أي رَجَعَ، قال تعالى: "إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ"، ويقال: نعوذُ باللهِ من الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ وهو النقصانُ بعد الزيادة، ونقولُ: كلَّمْتُه فما رَجَعَ إليَّ حَوَارًا وحِوَارًا ومَحُورَةً وحَوِيرًا"، والأصل الثالث: المِحْورُ: الخشبةُ التي تدورُ فيها المَحَالةُ، ويقال: حَوَّرْتُ الخُبْزَةَ تحْوِيرًا إذا هَيَّأْتُهَا وأدَرْتُها لتضعَها في المَلَّةِ"(١).

وفي القاموس المحيط: "الحَوْرُ: الرُّجُوعُ، كالمَحَارِ والمَحَارَةِ والحُؤُورِ، والنُّقْصَانُ، ومَا تحتَ الكَوْرِ مِن العِمَامَةِ، والتَّحَيُّرُ، والقَعْرُ، والعُمْقُ، وهو بَعِيدُ الحُوْرِ: أي عَاقِلٌ، وبالضم: الهلاكُ، والنَّقْصُ..... والمُحَاوَرَةُ: الجوابُ، كالحَوِيرِ والحَوَارِ، ومُرَاجَعَةُ النُّطْقِ، وتَحَاوَرُوا: تَرَاجَعُوا الكلامَ بَيْنَهُم، والتَّحَاوُرُ: التَّجَاوُبُ"(٢).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام محمد هارون: ٢/ ١١٥: ١١٧ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.

(٢) القاموس المحيط، للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت مكتب التراث في مؤسسة الرسالة: ٣٨٠، ٣٨١، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط٨ ٢٠٠٥م.

وقد أوضح معنى الحوار من المعاصرين الدكتور صالح بن عبد الله إذ يقول: "ويُرادُ بالحِوَارِ في مصطلح الناسِ: مُنَاقَشَةٌ بينَ طرفين أو أطرافٍ، يُقصد بها تصحيحُ كلامٍ، وإظهارُ حُجَّةٍ، وإثباتُ حَقٍّ، ودَفْعُ شُبْهَةٍ، ورَدُّ الفاسدِ مِنَ القولِ والرأي"(١).

ثانيا : مفهوم الجدل في اللغة والاصطلاح:

الجَدَلُ في اللغةِ: يقولُ ابنُ فارس: "الجيمُ والدالُ واللامُ أصلٌ واحدٌ، وهو مِنْ بَابِ استحكامِ الشيءِ في استرسالٍ يكونُ فيه، وامتدادِ الخُصُومَةِ، ومُراجعةِ الكلامِ"(٢).

وفي المصباح المنير: الجَدَلُ "مِنْ جَدِلَ الرَّجُلُ جَدَلاً فهو جَدِلٌ مِنْ بَابِ تَعِبَ: إذا اشْتَدَّتْ خُصُومَتُهُ، وَجَادَلَ مُجَادَلَةً وَجِدَالاً: إذا خَاصَمَ بِمَا يَشْغَلُ عَنْ ظُهُورِ الحَقِّ، وَوُضُوحِ الصَّوَابِ، هذا أَصْلُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ عَلَى لِسَانِ حَمَلَةِ الشَّرعِ في مُقَابَلَةِ الأَدِلَّةِ لِظُهُورِ أَرْجَحِها، وهُو مَحْمُودٌ إنْ كَانَ لِلْوقُوفِ عَلَى الحَقِّ، وإلَّا فَمَذْمُومٌ"(٣).

وفي الاصطلاح: الجَدَلُ: "هو عبارةٌ عَنْ دَفْعِ المَرْءِ خَصْمَهُ عَنْ فَسَادِ قَوْلِهِ بِحُجَّةٍ، أو شُبْهَةٍ، وهو لا يكونُ إلا بمنازعةِ غَيْرِهِ(٤).

وزاد الجرجاني في التعريفات: "دَفْعُ المَرْءِ خَصْمَهُ عَنْ إفْسَادِ قولِهِ بِحُجَّةٍ، أو شُبْهَةٍ، أو يُقصدُ بِهِ تَصْحِيحُ كلامِهِ، وهو الخُصُومَةُ في الحقيقةِ"(٥).

(١) أصول الحوار وآدابه في الإسلام، صالح بن عبد الله بن حميد: ٦، دار المنارة للنشر والتوزيع بجدة، ط١ ١٩٩٤م.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام محمد هارون: ١/ ٤٣٣.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، ت د عبد العظيم الشناوي: ١/ ٣٩، دار المعارف ١٩٧٧م.

(٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ت د عدنان درويش/ ومحمد المصري: ٣٥٣.

(٥) معجم التعريفات للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت محمد صديق المنشاوي: ٦٧، دار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

ثالثا : الفرق بين الحوار والجدل

ومن خلال الإمعان في بيان المقصـــود بالحوار والجدل يتبين أن الفرق بينهما يكمن في أن الحوار يقوم على مراجعة الكلام بين المتحاورين لكن بأســـلوب يتســـم بالرفق واللين واللطف، لذا فالحوار ســـنة الأنبياء في الحديث مع أقوامهم، وعرض دعواهم، أما الجدل فهو أيضـــا يقوم على مراجعة الخصـــم في الكلام لكنه غالبا يكون مصحوبا بالخصومة والنزاع والعناد، وهذا أسلوب الأقوام الكافرة المعاندة مع رســـلهم، إذ يجادلون بالباطل مع انعدام الحجة المقنعة، قال تعالى: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(سورة غافر/ ٥).

الآيـــات

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ (٧٠)} (الأنبياء من ٥٠: ٧٠).

المبحث الأول

التنازل مع الخصم وحمله على الإقرار بالحق

إن من أهم ما يتميز به المحاور الذكي الوصول إلى هدفه المنشود بأقصر الطرق وأقربها، وقد يحتاج المحاور في سبيل ذلك إلى التدرج في الكلام حتى يصل إلى محور قضيته، وهو في حوار إبراهيم –عليه لسلام– مع قومه زعزعة موقفهم المتعنت من إصرارهم على عبادة الأصنام، ثم استدراجهم إلى الإقرار بفساد معتقدهم، وإخلاص العبادة لله جلّ وعلا، ونبذ الشرك، فيحاور– عليه السلام –قومه مستدلا على صدق دعواه بالأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة التي لا تقبل الشك، مما يحملهم على الاعتراف بالحق رغم مكابرتهم والإقرار به.

وتوضيح ذلك يأتي ضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: أطراف الحوار، ودعوى كل طرف.

المطلب الثاني: بيان أوجه الزيف في دعوى الخصم.

المطلب الثالث: إثبات بطلان دعوى الخصم بالدليل الحسي.

المطلب الرابع: إثبات بطلان دعوى الخصم بالدليل العقلي.

المطلب الأول: أطراف الحوار، ودعوى كل طرف.

قد حدد الذكر الحكيم أطراف الحوار في مستهل قصة إبراهيم -عليه السلام- مع قومه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء/ ٥١، ٥٢).

الطرف الأول: خليل الله إبراهيم -عليه السلام- ودعواه هي التوحيد ونبذ الشرك.

الطرف الثاني: أبوه وقومه، ودعواهم عبادة الأصنام وتعظيمها.

وقد حددت الآيات بشكل واضح وصف كل طرف منهما؛ فإبراهيم -عليه السلام- وصفه ربه بالرشد الكامل بمعنى: "الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والإرشاد بالنواميس الإلهية، وقيل الصحف"[(١)]، وافتتحت الآيات بالتوكيد المتمثل في اللام الموطئة للقسم الداخلة على حرف التحقيق (قد)؛ مبالغةً في تأكيد انفراد إبراهيم -عليه السلام- بالرشد والصلاح بين قومه، إذ كانوا جميعا كفارًا ماعدا زوجته سارة وابن أخيه لوط -عليه السلام-[(٢)].

ومجيء الخبر مؤكدًا بأكثر من مؤكد مع أن المخاطبين هم العرب الذين يعرفون جيدًا رشده -عليه السلام- ولم ينكروه، فقد كان رشد إبراهيم -عليه السلام- مضرب المثل بين العرب وغيرهم؛ فنُزِّلوا

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: ١٧/ ٥٨، دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان.

(٢) يقول ابن كثير: "وصفه ربه بصفات عديدة فهو الحليم، الأواه، المنيب، الحنيف، القانت، الإمام والأمة، وأبو الأنبياء، وخليل الرحمن، عاش في (حرَّان) وكان أهل حرَّان كفارًا يعبدون الكواكب والأصنام، وكل مَن كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه وكان الخليل هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولا، واتخذه خليلا في كبره"

-ينظر: قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ت مصطفى عبد الواحد: ١/ ١٥٦، ١٥٧، مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة، ط٣ ١٩٨٨م.

منزلة المنكر، وأُلقي إليهم الخبر مؤكدًا بأكثر من مؤكد؛ لأنهم خالفوا شريعة أبيهم إبراهيم، وساروا في طريق الضلال كما فعل قومه المشركون(١).

ولا شك أن الرشد الذي أعطاه الله إياه رشدٌ عظيمُ الشأن رفيعُ القدر، بدليل إسناد إيتائه إليه تعالى في قوله: (آتَيْنَا) الذي يفيد التشريف والتعظيم، ثم إن إضافة الرشد إلى الخليل –عليه السلام– في قوله: (رشده) يشير إلى أن الهدى والرشاد اخُتص بهما إبراهيم –عليه السلام.

وزاد من تفخيم الرشد تذييل الجملة بقوله: (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)؛ مما يدل على أن الله –جلَّ وعلا– عالمٌ بأحقية إبراهيم –عليه السلام– للرشد، ومدى أهليته لذلك، أي: "علم من سريرته صفات قد رضيها وأحمدها، فاستأهل بها اتخاذه خليلا"(٢)، وقُدِّم الجار والمجرور (به) على خبر كان، لأن تقديمه أوثق صلة بغرض الكلام وهو تكريمه –عليه السلام– والثناء عليه، وهذا الرشد الذي أعطاه الله لإبراهيم –عليه السلام– في صغره بمثابة التهيئة والتوطئة له لحمل أعباء الرسالة؛ لأن مقاومة الباطل والوقوف في وجه الطغاة، والصدع بالحق في وجوههم يحتاج إلى تهيئة النفس لما سيواجهها من تكذيب، ورفض، والمحاربة بشتى الوسائل.

ثم استطرد الذكر الحكيم إلى بيان معالم رشده –عليه السلام– التي تتمثل في الدعوة إلى عبادة الله وحده، ومقاومة الشرك بالحجة وإثبات زيفها بالدليل الحسي والعقلي، فبدأ –عليه السلام– الحوار مع قومه بالسؤال، وجعله مقدمة قبل الدخول في صلب الحوار ﴿ما هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، وهذا من معالم فطنة المحاور الذي يُمهِّد في حواره قبل الدخول المباشر في صلب القضية، ولمعرفة ما عند الخصم من جواب أو شبهة يمكنه –عليه السلام– إثبات فسادها من خلال الإجابة على سؤاله،

---

(١) قال الطاهر:"وتأكيد الخبر عنه بلام القسم للوجه الذي بيناه آنفا في تأكيد الخبر عن موسى وهارون......"

–ينظر: التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ٩٤، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ٩٣.

فسألهم مستنكرًا مبكتًا إياهم، ما الذي يدعوهم إلى عبادة تماثيل لا تضر ولا تنفع؟: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ .

و(إذ) ظرف لقوله (آتينا) يفيد أن إيتاءه الرشـدَ كان حين نزل عليه الوحي، ودعا قومه إلى عبادة الله وحده، ونَبْذِ معبوداتهم، وقد ابتدأ -عليه السلام- توجيه الدعوة أولا إلى أبيه؛ لأنه أولى الناس بتقديم النصيحة له، ولأنه إذا تأثر بالدعوة تبعه من هم دونه، والاستفهام إنكاري يزخر بمعاني التوبيخ والتقريع والتشهير بغفلتهم وضلالهم؛ لعكوفهم على عبادة جمادات لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عنهم من الله شيئا، ومن وجه آخر فيه إغراء لهم باتباعه؛ لأنه يدعوهم إلى الحق.

وقد أظهر لهم -عليه السلام- معالم ضلالهم من عدة أوجه:

أولها: توجه الاستفهام في بادئ الأمر عن ذات التماثيل، وبيان كنهها، عن طريق السؤال بـ(ما) التي يستفهم بها عن غير العقلاء، و"يُطْلَبُ بها إمَّا شرح الاسم، وإمَّا ماهيَّةُ المُسَمَّى"[(١)]، وهو في الحقيقة يستفهم منكرًا عبادتهم لها؛ ليصل بهم إلى إدراك التناقض بين حقيقتها من كونها تماثيل وبين كونها معبودة من دون الله، وهذا من باب تجاهل العارف؛ لأنه -عليه السلام- يعلم جيدًا حقيقة ما يعبدون، ولكن ساق كلامه الكلام المعلوم مساق غير المعلوم؛ للتعريض بضلالهم، وسفاهة عقولهم من جهة، ومن جهة أخرى يحاول استمالتَهم، وحثَّهم على التأمل في حقيقة ما يعبدون من دون الله حتى يلمسوا بأنفسهم عينَ الصوابِ، ويفيئوا إلى الحق.

هذا فضلا عن تحقيره معبوداتهم مع علمه بتعظيمهم لها، وذلك عن طريق السؤال عنها بـ(ما) الموضوعة للسؤال عن غير العاقل، ثم الإشارة إليها باسم الإشارة (هذه) الموضوع للقريب؛ تنبيها على حقارتها وانحطاطها عن رتبة الألوهية، ثم تسميتها بالتماثيل دون مجاراتهم في تسميتها آلهة كما يزعمون، وهذا أدعى إلى عجزها فضلا عن عبادتها، ثم نعتها بالاسم الموصول (التي)؛ لتنبيههم إلى

(١) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد ابن محمد، ت إبراهيم شمس الدين: ١١٠، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط١ ٢٠٠٣م.

خطئهم، إذ اشتملت جملة الصلة (أنتم لها عاكفون) على بيان عدم الانسجام بين كونها تماثيل وبين كونهم يُعظمونها من دون الله، وكما نسب -عليه السلام- معبوداتهم إلى الإفراط في الحقارة نسب قومه إلى المبالغة والإفراط في تعظيمها وعكوفهم لها حيث قال: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؛ مؤكدا استمرارية عكوفهم على عبادة تلك التماثيل ودوامهم على ذلك بالجملة الاسمية، ثم تقديم الجار والمجرور (لها) على الخبر؛ لأنه محل الإنكار والعناية من الكلام، فضلا عن تخصيص العكوف بالذكر دون العبادة؛ لكونه يجمع بين الإقبال على الشيء ولزومه دون الانصراف عنه، يقول ابن فارس: "العين والكاف والفاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقابلةٍ وحبسٍ، يقالُ: عَكَفَ يَعْكُفُ وَيَعْكِفُ عُكُوفًا، وذلك إِقْبَالُكَ عَلَى الشَّيءِ لا تنصرفُ عنه"[1]، وفي تخصيصه العكوف دون العبادة "إيماء إلى تفظيع شأن العبادة غاية التفظيع"[2]، لأنهم لا يكتفون بعبادة تماثيل من صنع أيديهم فحسب بل يبالغون في ذلك ويحبسون أنفسهم على ملازمة عبادتها دون انقطاع، فهذا مما لا يقبله عقل سوي، ولا يقرُّه فكر نقي.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام محمد هارون: ٤/ ١٠٨.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: ١٧/ ٥٩.

المطلب الثاني: بيان أوجه الزيف في دعوى الخصم.

وقد احتج المشـــركون في جوابهم مبررين أحقية معبوداتهم -من منظورهم- بالعبادة، قال تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾(ســـورة الأنبياء/٥٣)، فجاء جوابهم دليلا على تحجر عقولهم، وانطماس بصـائرهم؛ لأنه -عليه الســلام- طالبهم بمســوغ عقلي يدفعهم لعبادة تماثيل، ليدحض حجتهم ويبطلها بالدليل، لكنهم فَرُّوا من الإجابة المســوغة إلى كونهم مقلدين آباءهم، وهذه مغالطة تثبت بطلان معتقدهم، وزيف دعواهم؛ إذ يستندون في تبرير دعواهم إلى وجود أكثرية تستحسنها، فهم مقلدون ليس إلا، فجاء جوابهم مما لا حجة فيه ولا برهان، مثلهم مثل مشــركي قريش حين قالوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(ســورة البقرة/١٧٠)، فكانت حجتهم التقليد الأعمى، وما أقبحَه من تقليد، يقول الزمخشـري: "وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل، وعفَّروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شـيء، وجادُّون في نصـرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم، وكفى أهل التقليد سُبةً أن عبدة الأصنام منهم"(١).

فما لبث نبي الله إبراهيم -عليه الســلام- أن ردَّ عليهم في قوة وجرأة وصــراحة، وحكم عليهم وعلى آبائهم بالضلال(٢) المبين، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(سورة الأنبياء/٥٤) .

(١) الكشــاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاســم جار الله محمود بن عمر الزمخشــري الخوارزمي، ت خليل مأمون شيحا : ٦٨١، دار المعرفة بيروت – لبنان، ط٣ ٢٠٠٩م .

(٢) الضَّلالُ: العُدُولُ عن الطَّريقِ المُسْتَقِيمِ، ويُضادُّهُ الهِدايةُ.

ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني: ٥٠٩ .

وقد توافرت في الآية العديد من المؤكدات التي كلها تدل على أن قومه في ضــلال محض منغمســين فيه؛ من ذلك، اللام الموطئة للقسـم، وحرف التحقيق (قد) الداخل على الفعل الماضـي (كان)[1] دون غيره من الأفعال؛ للدلالة على أنَّ الضــلالَ ســمةٌ متأصــلةٌ فيهم وفي آبائهم وأجدادهم، ملازمة لهم لا تنفك عنهم.

ثم أكدَّ بطريق الاســتعارة التبعية في الحرف (في ضــلال) انغماســهم فيه، وتمكنه منهم، فلا يكادون يبصرون شيئا من نور الحق والهداية، فكأن الضلال وعاء يحويهم هم وآباءهم احتواءً كاملا لا ينفكون عنه أبدا، فضلا عن إيثار التعبير عن الضلال بالمصدر دون الفعل أو الاسم المشتق؛ إشارة إلى أنهم في محض الضــلال نفســه، ثم وصــف (ضــلال) بأنه (مبين) مع تنكيره يفيد أنه ضــلال عظيم ظاهر بيِّن لا يخفى على ذي عقل أو بصيرة.

وبدلا من التدبر في جواب الخليل عليهم، وإعمال عقولهم بالنظر في حالهم، استبعدوا وصفه إياهم وآباءهم بالضلال، وشكُّوا في أمره، أيقول هذا عن جِدٍّ أم قاله على سبيلِ المداعبةِ والمزاحِ، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء/ ٥٥).

فالاستفهام للاستبعاد والتعجب من تضليله لهم ولآبائهم هكذا بكل جرأة وصراحة وقوة، وتوهموا أنه يمازحهم، ومما يلاحظ أنهم لم يقابلوا الحق بالمعادل الحقيقي له وهو الباطل، فيقولون مثلا: أجئتنا بالحق أم بالباطل؟، ولو قيل كذلك لكان في الكلام طباق ظاهر بين الحق والباطل، ولكن بهذا التعبير الذي جاء به الذكر الحكيم لا يبعد أن يكون كلامهم من الطباق الخفي؛ إذ يلزم كونه من

---

(١) يقول الراغب: "وما اســتعمل منه (كان) في جنس الشــيء متعلقا بوصــف له هو موجود فيه، فتنبيه على أن ذلك الوصــف لازم له، قليل الانفكاك منه"-ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصــفهاني، ت صــفوان عدنان داوود: ٧٣٠، دار القلم دمشق، ط٤ ٢٠٠٩م.

اللاعبين أن يكون ما جاء به باطلا، وقد جاءت هذه الصياغة معبرة عما أرادوه، ومصورة أدق تصوير لمقصدهم؛ لأنهم أرادوا أن ينسبوه إلى السفه، وأن كلامه هذا كلام من لا يعقل أو يُميز ما يقول، أما الطباق الظاهر بين الحق والباطل لا يلاءم مرادهم؛ لأنه في كلا الأمرين لا يقدح في رجاحة عقله -عليه السلام- لذا آثروا التعبير عن الباطل باللعب المراد به المزاح، وعليه فإن (أم) منقطعة تضمنت معنى (بل) الإضرابية، فأضربوا عن كونه جادًا في قوله وقطعوا بأنه لاعب غارق في زمرة اللاعبين وليس محقًا البتة، فالجملة ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ كناية عن أنه -عليه السلام- غريق في اللعب واللهو، ومما يقوي معنى التعجب والاستبعاد أنهم لم يخبروا عنه بمجرد كونه لاعبا، بل جعلوه من زمرة اللاعبين المستغرقين في اللعب بالقول أو المزاح؛ مبالغةً في تعجبهم، واستبعادهم لكلامه وتحقيره لهم ولآبائهم، وكأنهم قصدوا بهذا التعبير مقابلة وصفه لهم بتمكن الضلال منهم ومن آبائهم باستغراقه هو كذلك في اللعب والمزح، وتمكنه منه.

فأبطل -عليه السلام- رميهم إياه بالدخول في زمرة اللاعبين بالدليل والبرهان، قال تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء/٥٦).

فجاء ردُّه -عليه السلام- داعمًا لقضيته الأم، متمركزًا حول الدعوة إلى عبادة الله، وكان من مقتضى الظاهر أن يجيبهم بقوله: (بل أنا من المُحِقِّينَ ولستُ من اللاعبين)، فجاء جوابه: (بل ربكم رب السماوات والأرض) على الأسلوب الحكيم؛ إشارة إلى أن فساد دعواهم وكونهم في ضلال مبين هذا أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، أمَّا ما ينبغي الانتباه إليه كيف تسنى لهم ترك عبادة خالقهم ورازقهم الذي أنشأ السماواتِ وما فيها، والأرضَ وما عليها ومنها هم ومعبوداتهم التي يعكفون على عبادتها دون الخالق، ويخصونها بالعبادة دونه، فأيُّ باطل أبين من هذا؟ وناسب ذلك التعبير بالربِّ دون الإله

في قوله: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ﴾ ؛ لما تحمله لفظة الرب من معاني الرعاية والعناية والتربية(١)، فهو ربكم الذي يرعاكم ويرزقكم ويتعهدكم بالحفظ والعناية، بالإضافة إلى وصف (ربُّ) بالاسم الموصول (الذي) مما يفيد تعليق الحكم بالموصول المؤذن بعلِّية الصلة وهي فَطْرُ الله تعالى للسماوات والأرض على غير مثال، ولا شك أنَّ خلقَ السماوات والأرضِ من الأدلة القاطعة المتجلية على وحدانيته سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ فهو جلَّ وعلا ربُّ الأرباب، وحقيق بأن يُعْبَدَ وحده لا شريك له.

ومقول القول محذوف دل عليه السياق، والتقدير: "قال ليس ما قلتموه صحيحًا بل ربكم رب السماوات والأرض"(٢)، ومن اللافت للنظر خلو كلامه -عليه السلام- من التوكيد رغم أن المقام مقام إنكار وجحود؛ وذلك لأنه لم يُعتد بإنكارهم؛ نظرًا لوضوح الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الخالق -عزَّ وجلَّ- فلو أنهم تدبروا ونظروا نظرة تفكر وإمعان في الكون من حولهم لأيقنوا أن معبوداتهم ليست أربابًا، ولا شك أن إلقاء الخبر في هذا المقام خاليا من التوكيد أدخل في تبكيتهم، وبيانِ جهلهم وسفاهة عقولهم بالمكابرة، والعناد، والعزوف عن الحق رغم جلائه.

والضمير في (فَطَرَهُنَّ) إمَّا أن يعود على السماوات والأرض وهذا ظاهر؛ لعود الضمير على أقرب مذكور، وإمَّا أن يكون عائدًا على التماثيل، وهذا آكد في إقامة الحجة عليهم، وإرشادهم إلى الحق، فالخالق بلا شك أولى بالعبادة وأحق بها من المخلوق.

---

(١) يقول ابن فارس: "الراء والباء يدلُّ على أُصولٍ، فالأوَّلُ: إصلاحُ الشيءِ والقيامُ عليه، فالرَّبُّ: المالكُ، والخالقُ، والصَّاحبُ، والرَّبُّ: المُصْلِحُ للشيءِ، والله جلَّ ثناؤه الرَّبُّ؛ لأنَّه مُصْلِحُ أحوالِ خَلْقِه، والأصلُ الآخر: لزومُ الشيءِ والإقامةُ عليه، وهو مناسبٌ للأصل الأوَّل". ينظر: معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام محمد هارون: ٢/ ٣٨٢، ٣٨٣.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي: ٩/ ٤٢، دار الرشيد دمشق -بيروت، ط٣ ١٩٩٥م.

وقوله: ﴿وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ تذييل يتضمن دفع ما رموه به من الانغماس في زمرة المازحين بقولهم له: ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾، وجملة ﴿وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ كناية عن كونه -عليه السلام- من الجادين المُحِقِّين القائمين على إثبات دعواهم بالأدلة والبراهين، فاتفقت الجملتان في الأسلوب فكلاهما كناية، وفي التركيب وهو بناء الخبر على الضمير (المسند إليه)، وفي متعلق المسند (الجار والمجرور)، وفي كون المجرور اسم فاعل، فجاء ردُّه -عليه السلام- موافقا لنظم الجملة التي رموه به؛ مبالغة في إبطال دعواهم، وكأنه -عليه السلام- يقول لهم: "لست من اللاعبين في الدعاوى بل من العالمين فيها بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة"(١).

و(ذلكم) إشارة إلى الذي ذكره من كون ربكم هو الله رب السماوات والأرض، وفيه تمييز للمشار إليه أكمل تمييز؛ لأنه موطن الاستدلال، لذا أشار إليه بالبعيد؛ لتعظيمه وبلوغه الغاية في الاستدلال، كما أفاد تقديم الجار والمجرور (على ذلكم) على المسند مزيد العناية بالمعنى المشار إليه، وتقوية الحكم، وتأكيد أنه -عليه السلام- من المحققين المبرهنين على الحق دون غيره، دفعا لما رموه به من المزاح بأسلوب مؤكد يقابل ما رموه به من اتهام.

---

(١) التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ٦١.

المطلب الثالث: إثبات بطلان دعوى الخصم بالدليل الحسي.

قد بادر -عليه السلام- قومَه أولا بالقول المفحم والمنبئ برجاحة عقله في الاستدلال على زيف دعواهم مقابل صدق دعواه بالحُجج الساطعة فلم ينتفعوا، فانتقل إلى التغيير باليد، والاستدلال على بطلان دعواهم بالدليل الحسيِّ، فعزم -عليه السلام- عزمًا أكيدًا على تحطيم الأصنام، فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾(سورة الأنبياء/ ٥٧).

فبعد أنْ أيقن الخليل إبراهيم -عليه السلام- أنَّ قومه متمسكون بعبادة الأصنام، مصرُّون على ضلالهم، عزم على تحطيم أصنامهم، مؤكدًا ذلك بأكثر من مؤكِد؛ لأنَّ قومَه ما كانوا يتصورون أبدا أن يُقْدِمَ أحدٌ على تحطيم معبوداتهم مهما بلغت جرأته وقوته، فلما كان الخبر بالنسبة لهم غريبًا مستحيلا ناسب ذلك تأكيد الخبر بأكثر من مؤكِد، نظرًا لحالهم.

وأصل الكيد: "ضَـرْبٌ من الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا، وممدوحًا، وإنْ كان يُسْتَعْمَلُ في المذمومِ أكثر"(١)، فاستعار -عليه السلام- الكيد لتحطيم الأصنام - استعارة تصريحية تبعية في الفعل- بجامع إلحاق الضرر في كلٍّ؛ والكيد أمر معنوي ولا يقع إلا على ما يعقل والأصنام لا تعقل، فآثر -عليه السلام- التعبير عن تحطيمها بالكيد خاصة من باب مجاراة الخصم، وهذا أبلغ في إقامة الحجة عليهم؛ لأنها لو كانت أربابًا كما يزعمون فلتدفع عن نفسها الضرر، كما أن تحطيمها يحتاج إلى اجتهاد وحسن تدبير واحتيال؛ لأن تحطيمها في ظل أن قومه يعظمونها حق التعظيم من الصعوبة بمكان، فلا بدَّ من التحايل حتى يتم له ما أراد، ولذلك علق كيده الأصنام على انصراف قومه إلى عيدهم؛ إذ لا يمكنه ذلك في حضورهم مطلقا.

ومن اللافت للنظر أن جاء التعبير في الذكر الحكيم عن انصرافهم بالمصدر المؤول (أن تُوَلُّوا)، بدلا من الصريح؛ لما في المصدر المؤول من الدلالة على تصوير الحدث وتجسيده وكأنه ماثل ومشاهد أمام الأعين، ثم بتأكيد هذا التولي بكونهم (مدبرين)؛ لتأكيد انصرافهم التام عن الأصنام.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني: ٧٢٨.

ثم عبَّر الذكر الحكيم عن كيفية تحطيم إبراهيم -عليه السلام- للأصنام، فقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الأنبياء/ ٥٨)، فالفاء فصيحة أنبأت عن جمل محذوفة، والتقدير: فتولوا، فأتى إبراهيم -عليه السلام- الأصنام، فجعلهم جذاذًا، أي جعلهم قطعًا صغيرةً، وبلاغة الحذف تكمن في توفر الالتفات إلى الأحداث المهمة في القصة، وإبرازها واضحة جلية، وغض الطرف عما سواها من أحداث ثانوية تفهم من السياق وقرائن الأحوال، "ويعتمد القرآن على ذكاء قارئه، فيحذف من الجمل ما يستطيع القارئ أن يدركه؛ لأن السياق يستلزمه ويستدعيه....فحذف ما حذف من تفصيلات جزئية تُدرك من السياق، وفي تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة"(١).

ومعنى الجَذِّ: "كَسْرُ الشيءِ وتفتيتُه، ويقال لحجارةِ الذَّهبِ المكسورةِ، ولفُتَاتِ الذَّهبِ: جُذاذٌ"(٢)، وكلمة (جُذَاذًا) من الكلمات التي تصور المعنى بهيئتها، ودلالة أصواتها، فصورت مشهد التحطيم أدق تصوير؛ إذ جمعت اللفظة بين معنيي التكسير والتفتيت إلى قطع صغيرة، فدلت على قوة التحطيم والتهشيم الذي يتناسب والعزم الأكيد منه -عليه السلام- على إزالة الباطل ومحوه بكل ما أوتي من قوة وفتوة، وقد ذكر بعض المفسرين أن عدد الأصنام كان اثنين وسبعين صنمًا سوى الصنم الكبير، كما أن دلالة أصوات الكلمة تُكسب المعنى حركة وحياة؛ إذ صُدرت الكلمة بصوت الجيم الذي يتسم بالجهر والشدة، فيتلاءم وقوة أول الضرب، وارتفاع صوت التكسير المُنبئ بالمبالغة في التحطيم حتى تصير الأصنام رفاتًا، ولا شك أن بداية تكسير هذه التماثيل الصُلبةِ أمرٌ فيه ثقل يحتاج إلى مزيد من القوة، فيتناسب وثقل الضمة على صوت الجيم في صدر الكلمة، ثم يليه صوت الذال وهو صوت يتسم

(١) من بلاغة القرآن، د أحمد أحمد بدوي: ١٠١، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ، للعلامة الراغب الأصفهاني : ١٩٠.

بالجهر –أيضا– والرخاوة[1]، وجاء مكررًا فتناسب وتكرار الضرب – ليس بنفس مستوى الشدة والقوة في الضرب الأول– إلى أن تصير هشيما يتناثر في كل مكان، ويُحدث حفيفًا بسيطًا يشير إلى المبالغة في صغر حجم القطع المتناثرة هنا وهناك، فارتطامها بالأرض ارتطام فيه لين وسهولة.

واستبقى الخليل –عليه السلام– كبيرَ الأصنام وجعل الفأس في عنقه، وعلة ذلك: (لعلهم إليه يرجعون)، فالضمير في (إليه) إمَّا أن يكون عائدًا إلى كبير الأصنام عند قومه، وفعل –عليه السلام– ذلك لما عهده منهم من سفاهة عقولهم، وتماديهم في المكابرة، يقول ابن عاشور: "لأنه يعلم أن جهلهم يطمعهم في استشارة الصنم الكبير"[2]، ولكن التساؤل هنا عن الفائدة الدينية من رجوعهم إلى كبير الأصنام لسؤاله عمن فعل هذا، حتى يجعله نبي الله إبراهيم غرضًا لاستبقائه؟ والجواب هو التدليل على فساد دعواهم بالدليل الحسي، وتأكيد ضلالهم وسخافة عقولهم؛ لاعتقادهم النفع والضرر في تلك الأصنام التي يعظمونها من دون الله، والتي لا تستطيع دفع الضرر حتى عن نفسها، فضلا عن غيرها، فإذا أيقنوا ذلك ووعوه تبين لهم عجزُ أصنامهم، وخطؤهم في عبادتها وتعظيمها من دون الله جلَّ وعلا [3]، وهذا نمط من الحوار جديد لم يُعهد إلا على يدي إبراهيم –عليه السلام.

وإما أن يكون الضمير في (إليه) عائدا إلى إبراهيم –عليه السلام–، فهم لا يرجعون إلا إليه؛ لاشتهاره بينهم بعداوة معبوداتهم، وعند رجعوهم إليه يحاججهم، ويثبت لهم بطلان معتقدهم بالدليل والبرهان، والراجح عندي هذا الرأي؛ لأن هذا ما أكدته الآيات التالية، فقد توجهوا بالفعل إليه –عليه السلام– لما سمعوه عنه من سَبِّهِ لمعبوداتهم، وتحقيره لها، وإنكاره لمعتقدهم، وعليه فتقديم الجار

---

(١) الأصوات الرخوة عند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباسا محكما، وإنما يكتفى بأن يكون مجراه عند المخرج ضيقا جدا، ويترتب على ضيق المخرج أن النفس أثناء مروره يحدث حفيفا أو صفيرا تبعا لنسبة ضيق المجرى.

-ينظر: الأصوات اللغوية، د إبراهيم أنيس: ١٤، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥ ١٩٧٥م.

(٢) التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ٩٨.

(٣) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت خليل مأمون شيحا : ٦٨١ . بتصرف

والمجرور على العامل (إليه يرجعون) يفيد القصر، أي قصر رجعوهم في بيان أمر ما حدث على كونه إليه دون غيره، قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا.

وعندما رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا من التحطيم والجذِّ: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(سورة الأنبياء/ ٥٩)، فطوى الذكر الحكيم بعض المشاهد بعد عودتهم من عيدهم، ورؤيتهم ما حدث بأصنامهم؛ مسارعةً إلى ذكر المطلوب والأهم وهو معرفة الفاعل، والاستفهام[١] في قوله: ﴿مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ إنكاري توبيخي بمعنى أن ما حدث من تحطيم أصنامهم ما كان ينبغي أن يحدث، ومما زاد توبيخهم للفاعل شناعةً أنهم عبَّروا عنها بالآلهة؛ مبالغةً في بشاعة الجرم، ومن ثَمَّ بشاعة العقوبة المترتبة عليه، وجملة التذييل (إنه لمن الظالمين) تؤكد معنى الإنكار التوبيخي في الجملة قبلها؛ بمعنى أنَّ مَنْ تجرأ وحطم أصنامَهم بتلك الصورة فهو لا محالة ظالمٌ مجبولٌ على الظلم، ثابت فيه، وإلا لما أقدم على ذلك؛ لعلمه بمكانتها عندهم، وبما سيلحقه من عذاب وهلاك جراء فعله، فالفصل لكمال الاتصال بين الجملتين، وقد بالغوا في تأكيد كونه ظالما – بإنَّ واسمية الجملة واللام واسم الفاعل-؛ مما يشير إلى مزيد العناية بالمعنى، ووفرة الرغبة منهم بإنزال أشد العقوبات وأهولها على الفاعل.

فأجابهم مَن سمع إبراهيم -عليه السلام- وهو يتوعد أصنامهم بالكيد: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(سورة الأنبياء/ ٦٠)، فالجملة مستأنفة استئنافًا بيانيا شأنها شأن جميع الجمل الحوارية في

---

(١) ذكر أبو البقاء العُكبري أن في قوله: "من فعل هذا" يجوز أن (مَنْ) استفهاما فيكون (إنَّه) استئنافا، ويجوز أن يكون بمعنى الذي؛ فيكون (إنَّه) وما بعده الخبر.

ينظر: التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكبري، ت علي محمد البجاوي: ٢/ ٩٢١، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، ١٩٧٦م.

القصــص القرآني، وقد جعل الإمام عبد القاهر الجرجاني كلَّ ما جاء في القرآن من القول مفصــولا غير معطوف(١)؛ لأنه من قبيل الاســتئناف البياني، فبين الجمل الحوارية ترابط معنوي، فلا يحتاج معه إلى الوصل اللفظي.

عبَّروا عنه –عليه الســلام– بلفظ (فتى) بكل ما تحمله الكلمة من معاني الشــباب والقوة والفتوة والجرأة والإصــرار، لفظ الفتى كما يقول ابن فارس" الفاء والتاء والحرف المعتل أصــلان: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ على طَرَاوةٍ وجِدَّةٍ، والأخرى على تَبْيينِ حكمٍ"(٢) والفَتِيُّ: "هو الشــابُّ القويُّ، ويقالُ للشــابِّ الحَدَثِ"(٣)، عبَّروا بالنكرة لإفادة أنه مجهول، ليس من الناس المعروفين ذوي الشــأن والمكانة بينهم، مؤكدين ذلك بوصفه بجملة (يقال له إبراهيم)، أي لا يُعرف بين القوم إلا بأن اسمه إبراهيم.

وجملة (يذكرهم) وجملة (يقال له إبراهيم) صفتان لـ (فتى)، وقيل: إن جملة (يذكرهم) مفعول ثان للفعل سمع، والمفعول الأول (فتى)، ولكنَّ جَعْلَ جملة (يذكرهم) صفة لــ (فتى) أبلغ في إسناد الذكر إليه –عليه السلام–؛ لأنها تفيد أن ذكره أصنامهم بالسوء قد سُمِعَ منه مباشرة دون واسطة، مما يقوي إقامة الحجة عليه(٤).

فما كان من المنصــبين أنفســهم للبحث في تحري الأمر إلا أن طلبوا إحضــاره على مرأى من الناس جميعا، ليشهدوا عقوبته، قال تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾(سورة الأنبياء/٦١)،

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، الشــيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ت محمود محمد شاكر: ٢٤٠، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر، ط٣ ١٩٩٢م.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام محمد هارون: ٤/ ٤٧٤.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للعالم العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ: ٢/ ٤٦٢.

(٤) ينظر: روح المعاني في تفســير القرآن العظيم والســبع المثاني، للعلامة أبي الفضــل شــهاب الدين الســيد محمود الألوسي:١٧/ ٦٣. بتصرف

فالجملة جواب لسؤال مقدر في النفس تقديره: فماذا فعلوا بعد ذلك، هل أتوا به أو لا؟ فالفصل لشبه كمال الاتصال، وقوله: (على أعين الناس) مجاز مرسل علاقته الآلية؛ إذ عبَّروا بالعين وأرادوا البصر والرؤية؛ مبالغة في تمكن الرؤية، وتأكيد حصولها من جميع الحاضرين، وكأنهم أتوا به مستعليًا على أبصارهم، فرأوه رؤيةً واضحةً جليةً، وجملة التذييل (لعلهم يشهدون) تؤكد مضمون هذا المعنى وتقرره، والمعنى يشهدون بما سُمع منه، أو بما فعله، فالشهادة تحتمل المعنيين، يقول ابن فارس: "الشينُ والهاءُ والدالُ أصلٌ يَدُلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلامٍ، من ذلك الشهادة، يجمع الأصولَ التي ذكرناها من الحضورِ والعِلْمِ والإعلامِ، يُقالُ: شَهِدَ يَشْهَدُ شهادةً، والمَشْهَدُ : مَحْضَرُ النَّاسِ"(١).

وكأنهم أرادوا أن يأخذوه ببينة، أو أرادوا أن يجعلوه عبرة لغيره فيكون الجميع شاهدين على عقابه، يقول الشوكاني: "إنه لما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجة عليه، يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به"(٢).

وصيغة المضارع تنقل الحوار إلى بؤرة التجسيد والتصوير للحدث، وكأننا نشاهده رأي العين وقد أتوا به على رؤوس الأشهاد؛ ليمكروا به -عليه السلام- وبهذا قد تم للخليل إبراهيم مقصده الأكبر من مواجهة الطغاة والنيل منهم، وكشف زيف معتقدهم أمام جميع الحاضرين من القوم.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام محمد هارون: ٣/ ٢٢١.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي محمد الشوكاني، ت يوسف الغوش: ٩٣٩، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط٤ ٢٠٠٧م.

المطلب الرابع: إثبات بطلان دعوى الخصم بالدليل العقلي، ودفعه إلى الإقرار بالحق.

لقد أتوا بنبي الله إبراهيم -عليه السلام- على أعين الناس، وواجهوه بتهمته- في نظرهم- ليقيموا عليه الحجة، حاملين إياه على الإقرار بما ارتكبه من جرم عظيم في حق أصنامهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيم ﴾(سورة الأنبياء/٦٢).

في الكلام حذف تقديره: (فأتوا به فقالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا....)، وعدم ذكر فعل الإتيان به يصور إرادة السرعة في الانتقال إلى سؤالهم إياه؛ لمعاقبته جراء ما فعل.

والاستفهام (أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا) تقريري، بقصد حمله -عليه السلام- على الإقرار بأنه الفاعل، فالتكسير والتهشيم لا شك في حدوثه بدليل عدم إيلاء الفعل همزة الاستفهام، فضلا عن الإشارة إليه باسم الإشارة (هذا)؛ لكون الحدث حاصلا مشاهدًا أمامهم، يقول الأمام عبد القاهر: (ومن أبين شيء في ذلك "الاستفهام بالهمزة" فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: أفعلت؟، فبدأت بالفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أنك تعلم وجوده، وإذا قلت: أأنت فعلت؟، فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو؟ وكان التردد فيه)(١).

فأجابهم خليل الله متهكمًا على جهة الاحتجاج عليهم، وإلزامهم الحجة عن طريق التعريض: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُون ﴾(سورة الأنبياء/ ٦٣).

فأضرب -عليه السلام- عن كونه الفاعل، ونسب الفعل إلى كبير الأصنام، وفي ذلك تعريض بأن صغار معبوداتهم لا تصلح أن تكون آلهة وإلا لدافعت عن نفسها، وكذلك كبير أصنامهم لا يستحق التعظيم ولا يصلح أن يكون إلها وإلا لدفع الضرر عنها، ومن ثم ثبت عجزها وانتفاء ألوهيتها، وإسناد الفعل إلى كبيرهم حقيقة عقلية؛ لأن هذا مما يوافق اعتقادهم، وعليه فلا تأول فيه، لأن التأول شرط في المجاز العقلي، والمعنى أن كبيرهم قام بتحطيم بقية الأصنام غضبا؛ بسبب مشاركتهم له في العبادة،

(١) دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ت محمود محمد شاكر: ١١١.

وغرض إبراهيم -عليه السلام- من ذلك استدراجهم إلى الإقرار بالحق، وإثبات العبادة لله وحده رب العالمين.

ثم حملهم على التأمل والنظر في حقيقة ما يعبدون بحملهم على استنطاقها وسؤالها؛ ليبين لهم ضلالهم وبطلان ما هم عليه، قائلا: (فَاسْأَلُوهُمْ)، فارتقى -عليه السلام- في الاستدلال على سلب الألوهية عن جميع أصنامهم بحملهم على استنطاقها، ومعرفة الفاعل، فالأمر (فاسألوهم) للتعجيز؛ فهو -عليه السلام- بهذا الأمر يعجِّزهم، لعلهم في قرارة أنفسهم يقرون أنها لا تسمع ولا تجيب، ومن ثَمَّ يظهر لهم ضلالهم، وبُعدهم عن الحق.

ثم أتبع هذا الأمر التعجيزي بجملة شرط تعزز هذا التعجيز، وتؤكد انتفاء الألوهية عن أصنامهم (إِن كَانُوا يَنطِقُونَ)، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه السياق، والتقدير: إن كانوا ينطقون فاسألوهم، فقيَّد الشرط بـــ(إنْ) التي تستعمل في الأمر المستحيل والنادر المشكوك في وقوعه، وقُدرةُ أصنامهم على النطق أمرٌ مقطوع بانتفائه، ولعل استعماله (إن) ليبني كلامه على الفرض والتقدير، وهذا الفرض والتقدير يتيح لقومه فرصة مراجعة أنفسهم مرة أخرى، وتحكيم عقولهم، والتحقق من الحالة التي هم عليها، وإن فعلوا أيقنوا زيفَ دعواهم وصدقَ دعوى إبراهيم -عليه السلام.

ونفيه -عليه السلام- الفعل عن نفسه لا يُعَدُّ كذبا[(١)]؛ لأنه من باب فرض الباطل مع الخصم حتى يلزمه الحجة، ويقطع عليه شبهته.

وقد خصَّ -عليه السلام- النطق بالذكر دون السمع أو العقل، فلم يقل: (إن كانوا يسمعون أو يعقلون)؛ لأن الظاهر من توجيه السؤال إليهم يستلزم أنهم يسمعون ويعقلون، فانتفاء النطق أبلغ في

(١) يقول ابن عاشور: "إن النهي عن الكذب إنما علته خداع المخاطب، وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع بخلافه، فإذا كان الخبر يُعقب بالصدق لم يكن من الكذب بل كان تعريضًا أو مزحًا أو نحوهما".

-ينظر: التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ١٠٢.

التبكيت، وأدخل في التوبيخ؛ لأن انتفاءه دليل دامغ على انتفاء السمع ومن ثم العقل، ومن ثم انتفاء ألوهية أصنامهم من الأساس.

وبالفعل رجع القوم باللوم على أنفسهم بعد مواجهتهم بالحجة الساطعة التي لا تقبل النقاش، فأحكموا عقولهم، وأقروا بالحق، قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُون﴾(سورة الأنبياء/ ٦٤).

فالفاء رتبت رجعوهم بالملامة على أنفسهم على ما قبلها من التأمل في حجة الخليل إبراهيم -عليه السلام-، وتبكيته لهم، ومعنى رجعوهم إلى أنفسهم أي: "تركهم التأمل في تهمة إبراهيم، وتدبر دفاع إبراهيم، فلاح لكل منهم أنه بريء"[١]، فقوله: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ﴾ كناية عن استقامة فكرهم، وإحكام عقولهم في حجة إبراهيم -عليه السلام-، ويجوز أن يكون كناية عن إقبال بعضهم على بعض، وإعراضهم عن مخاطبة إبراهيم -عليه السلام-، وكلا الكنايتين تجسيد لرجوع المنقطع عن حجته، العاجز عن المواجهة لفقده الحجة المقنعة، المذعن لظهور حجة خصمه، الموقن لصحة دعواه.

وقوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُون﴾ معطوف على ما قبله بالفاء التي أفادت الترتيب والمبالغة في سرعة رمي أنفسهم بالظلم ونفيه عن إبراهيم -عليه السلام-، بمعنى أنهم سرعان ما رجعوا إلى التفكر في حجته، ونطقوا بالحقيقة في كونهم هم الظالمين لا مَن رموه بالظلم، وقالوا عنه: إنه لمن الظالمين؛ لأن هذه الأصنام تستحق ما فُعل بها، أو ظالمون في عبادتهم ما لا ينطق، أو ظالمون حين لم يحفظوا معبوداتهم[٢]، والجملة أفادت القصر بطريق تعريف الطرفين، فقصر صفة الظلم عليهم قصر قلب بحيث لا تتعداهم إلى إبراهيم -عليه السلام- وبذلك توافرت على الجملة عدة مؤكدات -إنّ، واسمية الجملة، وضمير الفصل، والقصر- تشير كلها إلى امتلاء أنفسهم بالخبر المؤكد في أن الظلم صفة ثابتة

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي :١٧/ ٦٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط، لأبي محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، ت الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و الشيخ علي محمد معوض : ٦/ ٣٠٣، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط٣ ٢٠١٠م. بتصرف

لهم، سجية فيهم، فجاء إقرارهم بذلك مقابلا لما رموا به إبراهيم -عليه السلام- من تأصل الظلم فيه لمَّا حطّم أصنامهم، كما يشير التوكيد من جهة أخرى إلى يأسهم من مواجهته -عليه السلام-، ومجادلته بعد قمعه لهم بالحجة الساطعة، ودحض حججهم الواهية المبنية على العناد والغرور والمكابرة ليس إلا.

ثم عادوا إلى العناد والمكابرة، وانقلبوا إلى المجادلة بالباطل مرة أخرى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ (سورة الأنبياء/٦٥)، وأصل النَّكْسِ: "قَلْبُ الشيءِ على رَأْسِهِ، ومنه نُكِسَ الولَدُ: إذا خَرَجَ رِجْلُهُ قَبْلَ رَأْسِهِ"(١)، فالانتكاس على الرؤوس تمثيل لتغير رأيهم عن الصواب إلى الضلال(٢)، فصور الذكر الحكيم حالة رجوعهم عن الحق بعد استقامة فكرهم إلى المكر والجدال بالباطل، بحال من انتكس وانقلب على رأسه، بجامع التبدل المذموم والتحول القبيح المنافي للفطرة السليمة، على سبيل الاستعارة التمثيلية، فجسدت الاستعارة هذا التحول المفاجئ لهم بعد إقرارهم بالحق بصورة قبيحة مخالفة لفطرة البشر؛ مبالغة في التنفير والتحقير من حالهم، ولذا حسن العطف بـ(ثم) التي جسدت بمعناها – الدلالة على الترتيب والتراخي- بُعدِ الرتبة بين الحالتين، فشتان بين حال من تفكر وتدبر وهُدي إلى الحق، وحال من لغى عقله وجعل رجليه مكان عقله مخالفا الفطرة السليمة، وانساق وراء التقليد الأعمى، فأي خير يُرجى من ورائه؟.

وناسب ذلك -أيضًا-بناء الفعل (نُكِسوا) للمجهول؛ فالفاعل الحقيقي للانتكاس هم أنفسهم، فأصل الفعل انتكسوا، فأشار البناء للمجهول إلى سرعة انتكاسهم وانقلابهم من الإقرار بالحق إلى التصميم على الكفر والضلال، كما يشير إلى تحقيرهم؛ لأن مَنْ كان ذا عقل سليم، وصاحب فكر سوي لا بُدَّ له أن يتدبر الأدلة الحسية والعقلية التي أجراها الله على يد ولسان أنبيائه -عليهم أفضل

(١) مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني: ٨٢٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ١٠٣.

الصلاة والسلام- ويلمس صحتها بعقله وقلبه، ولا يجوز له بعد ذلك الانتكاس بتلك الصورة المخزية القبيحة التي لغى فيها عقله، وانساق وراء الأهواء والتقليد الأعمى، فصار كمن لا يعقل، بل أسوأ.

وتحمل الآية وجوهٍا أخرى لمعنى الانتكاس أشار إليها الزمخشري في تفسيره الكشاف، إذ يقول: "استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم، وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم -عليه السلام- حين نفوا عنها القدرة على النطق، أو قُلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلا وانكسارا وانخزالا مما بهتهم به إبراهيمُ عليه السلام"(١).

فإذا كان انقلاب رؤوسهم حقيقة فالجملة كناية عن تطأطؤ الرؤوس، وانتكاسها إلى الأرض خجلا وخزيا لقوة حجة الخصم، وانعدام قدرتهم على المواجهة بنفس قوة العقل والمنطق، وعلى معنى تفسير الانتكاس بالانقلاب والرجوع عن حالة استقامة الفكر إلى المجادلة بالباطل فالاستعارة أبلغ في تجسيد التوبيخ والإهانة والسخرية من حالهم.

وجملة (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ) مقول لقول محذوف تقديره: قائلين والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، أي "أنت تعلم أن هؤلاء الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك : (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) إلا التنصل من جريمتك"(٢)، وقد توافر في جدالهم أيضا عناصر التوكيد كما توفر في إقرارهم بالحق قبيل انتكاسهم، منها اللام الموطئة للقسم، وقد، والتعبير بالعلم دون المعرفة؛ لأنَّ العلمَ أعمُّ من المعرفة؛ فالعِلْمُ: "إِدْرَاكُ الشيءِ بِحَقِيقَتِهِ، وذلك ضربانِ: أَحَدُهُما إِدْرَاكُ ذاتِ الشيءِ، والثاني الحُكْمُ على الشيءِ بِوُجُودِ شيءٍ هو مَوْجُودٌ لَهُ أَوْ نَفْيُ شيءٍ هو منفِيٌّ عَنْهُ"(٣)، أمَّا فالمعرفة: "إدراكُ الشيءِ

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت خليل مأمون شيحا: ٦٨٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ١٠٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت محمد سيد كيلاني: ٣٤٣، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت- لبنان.

بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ، وهي أَخَصُّ من العِلْمِ، وَيُقَالُ: فُلانٌ يَعْرِفُ اللهَ، ولا يُقَالُ: يَعْلَمُ اللهَ، ويُقَالُ اللهُ يَعْلَمُ كذا، ولا يُقَالُ: يَعْرِفُ كذا، وَيُضَادُّ المَعْرِفَةَ الإِنْكَارُ، والعِلْمَ الجَهْلُ"(١).

ومن عناصر التوكيد كذلك تسلط النفي على المسند إليه المتقدم على خبره الفعلي (ينطقون)؛ مما يفيد تخصيص هذه الأصنام بعدم النطق، واستمرارية انتفاء الحدث وهو النطق في كل زمن حاضر كان أو ماضي أو مستقبل، وانتفاء نطقها مطلقا يثبت انتفاء ما يستلزمه من سمع وعقل، ومن ثم انتفاء ألوهيتها، وكثرة التوكيدات تصب في صالح خصمهم -إبراهيم عليه السلام-؛ لأنها تشير إلى قوة إحساسهم بالمعنى المؤكد، وامتلاء أنفسهم به، فجدالهم صار حجة عليهم لا لهم، فثبت لهم بالدليل العقلي والحسي سقوط دعواهم، وفساد معتقدهم، وبطلان زعمهم.

---

(١) السابق: ٣٣١.

المبحث الثاني

إثبات القدرة المطلقة لله رب العالمين أمام عجز معبوداتهم

بعد أن أفحمهم إبراهيم –عليه السلام– بالأدلة الدامغة التي تثبت بطلان دعواهم، ودفعهم –بعد النظر في حججه الواضحة– إلى الإقرار بعجز معبوداتهم عما يؤهلها للعبادة، أثبت لهم بالدليل والبرهان قدرةَ الله رب العالمين خالقِهم وخالقِ كل شيء، وأنه الأحق بالعبادة دون معبوداتهم العاجزة عن دفع الضرر عن أنفسها، فضلا عن غيرها.

وبيان ذلك يأتي تفصيله ضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: عرض الدعوى على الخصم، والتدليل على صحتها.

المطلب الثاني: لجوء الخصم إلى استعمال القوة الغاشمة عند انعدام الحجة.

المطلب الثالث: تأييد الله –عز وجل– نبيه –عليه السلام–، وردُّ كيد الكائدين.

المطلب الأول: عرض الدعوى على الخصم، والتدليل على صحتها.

لما كان جدالهم المؤكد بتلك الصورة (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ) حجة عليهم، انتهز الخليل –عليه السلام– الفرصة محاولا إرشادهم إلى الحق، فبسط دعواه مدعَمة بالدليل البيِّن، وعرضها على قومه بديلا لدعواهم الباطلة، ففرَّع على إقرارهم بعدم أهلية معبوداتهم للعبادة استفهامًا إنكاريًا بقصد التوبيخ والتبكيت، قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (سورة الأنبياء/ ٦٦)، فالاستفهام إنكاري توبيخي بمعنى ما كان ينبغي وقوع ذلك منكم، كما يفيد التعجب؛ لإصرارهم على عبادة هذه الأصنام من دون الله بعد ما ثبت لهم بالأدلة فقدانُها مقوماتِ العبادة، وموطنُ الإنكارِ والتعجب هو هذه المفارقةُ الصارخةُ بين تعظيمهم لأصنام ثبت لهم بالأدلة عجزُها، وتركِهم عبادةَ الله القادر، خالقهم وخالق كل شيء في السماوات والأرض.

ومن اللافت في بناء الجملة دخول همزة الإنكار التوبيخي على الفاء العاطفة، مما أفاد عطف الجملة على محذوف، والتقدير –والله تعالى أعلم–: أتعلمون أنهم لا ينطقون فتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم، فما قبل الفاء ليس محلا للإنكار، بل المنكر هو المعطوف الواقع

بعدها[1]، وهو إصـــرارهم على عبادة الأصـــنام من دون الله مع علمهم بعجزها، فالتبكيت فيه أعظم، والتقريع به أشـــد؛ لأن النتيجة المتوقعة بعد إقرارهم بالحق على العكس تماما من واقع فعلهم وما هم عليه.

وقد قصـــد -عليه الســـلام- بالاســـتفهام الإنكاري تنبيه قومه إلى مواطن العجز فيما يعبدون، فهي جمادات فاقدة لمقومات الألوهية، وهذه النقائص دليل دامغ على فســـاد دعواهم، واســـتئصـــالها من الجذور، فعبر عن أصـنامهم بالاسـم الموصـول (ما)؛ لتنبيههم إلى ما هم عليه من خطأ، وغفلة، حيث تضـــمنت جملة الصـــلة تأكيدَ جهلهم وغفلتهم عن الحقيقة، فالعلم بحال معبوداتهم المنافية للألوهية توجب الانقطاع عن عبادتها، وتوجب العبادة لله جلَّ وعلا، وزاد في تأكيد نســـبة العجز التام لها الطباق بين الفعلين المضـارعين: (لا ينفع، ولا يضـر) الذي أبرز تأكيد عجزها التام عن النفع والضـرر على حد السواء، وانتفاء الحدثين في كل زمن كان في الماضي والحاضر والمستقبل، ونفي وقوع ذلك في يوم ما في أي وقت، فهذا لم يحدث، ولم يتجدد أبدا.

وبعد أن لمس -عليه الســـلام- اليأس من اتباعهم الحق والإيمان بالله رغم وضـــوح الأدلة العقلية والحسية والكونية وضوح الشمس، أبدى ضجره وضيقه منهم، وتحقيره لهم ولمعبوداتهم، قال تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(ســـورة الأنبياء/٦٧)، فيُلمح من عموم معنى الآية أنَّ التدرج النفسي بدا واضـحًا في حواره -عليه السـلام- لقومه بعد أن أيقن أنّ كبرهم وعنادهم هيمن على عقولهم، وطغى على قلوبهم، ومع ذلك لم يخرج -عليه السـلام- في حواره معهم عن صُـلب القضـية، وهو الدعوة إلى الله، ولم يخضع لأي ضغوط فكرية فرضها عليه الحوار مع هؤلاء المكابرين المُصرِّين على الباطل بعد انكشـــاف نور الحق والهداية، فعبَّر -عليه الســـلام- عن حالة الضـــيق التي انتابته من

(١) وفي تقدير معطوف عليه بعد همزة الإنكار الداخلة على الفاء، وتســـلط الإنكار على المعطوف، ينظر تفســـير الأمام جار الله الزمخشري لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُون﴾[الأعراف:٩٧] .
ينظر: الكشـــاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاســـم جار الله محمود بن عمر الزمخشـــري الخوارزمي، ت خليل مأمون شيحا: ٣٧٥.

جدالهم بالباطل بعد ظهور الحق وانكشافه بلفظ (أُفٍ)، وهو أدنى مراتب القول السيِّئ، و(أُفٍّ) اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، واللام في (لكم) وفي (لما) للملكية؛ فأفادت المبالغة في تحقيرهم هم ومعبوداتهم، بمعنى أن كل معاني القبح والضجر والضيق والتحقير صارت في حوزتكم أنتم وما تعبدون من دون الله، فكلاكما مستحق لذلك على حد السواء.

والتعبير بالاسم الظاهر (اسم الجلالة) في (من دون الله) دون الضمير؛ للمبالغة في تعظيم ذنبهم ومدى شناعته، فأي جرم وأي ذنب يمكن للعبد أن يقترفه في حق نفسه أفظع وأعظم من الشرك بالله جل وعلا.

ثم فَرَّعَ -عليه السلام- على السخرية منهم ومن أصنامهم استفهامًا إنكاريًا آخر: (**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**) توبيخًا وتعريضًا بغباوتهم، ووقوع الفاء بعد همزة الإنكار أفادت عطف جملة (لا تعقلون) على "استئناف مقدر أي: "أجهلتم فلا تعقلون"[1]، والحذف يشير إلى الحالة النفسية التي كان عليها الخليل -عليه السلام- من الضيق والضجر؛ لإعراض قومه عن الحق بعد وضوحه وتمسكهم بالباطل بعد زهوقه، فكأنه يقول لهم: إنَّكم بإصراركم على التمادي في الباطل بعد ما بينتُ لكم من الأدلة والبراهين التي لا تقبل الشك، فكأنكم لا عقل لكم يدرك ويتدبر ويعي آيات الله في الكون الدالة على وحدانيته وقدرته، فما أنتم فيه من كفر وضلال لا يتأتى إلا من سفيه لا عقل له.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي: ٩/ ٤٩.

المطلب الثاني: لجوء الخصم إلى استعمال القوة الغاشمة عند انعدام الحجة.

بعد أن عجز قوم إبراهيم -عليه السلام- عن مواجهته، ولم يجدوا حجةً مقنعةً لكفرهم وعصيانهم، لجأوا إلى ممارسة الاضطهاد، واستخدام سلطتهم ضده، مطالبين بتعذيبه وإهلاكه حرقا، بغية إظهار الغلبة عليه بأي وجه كان، وهذا حال أهل الضلال في كل زمان ومكان؛ إذا عجزوا عن مناظرة أهل الحق هرعوا إلى استخدام القوة الغاشمة، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾(سورة الأنبياء/ ٦٨).

وقيل: إنَّ مَن أشار عليهم بإحراق إبراهيم -عليه السلام- رجل من الأكراد، وقيل النمروذ[(١)]، وقد أُسند فعل القول في (قالوا) إلى جميعهم وهو لبعضهم، وفيه مجاز عقلي حيث أُسند الفعل إلى الجنس كله وهو إلى بعضه؛ لأن القول بإحراقه قد لاقى قبولا واستحسانا عند جميعهم، فصاروا جميعًا مشاركين في الأمر بالإحراق، والراضي بالشر كفاعله، والظاهر أن القول بإحراقه كان سرًا بينهم لئلا يعرف به إبراهيم -عليه السلام- فيلوذ بالهروب من هذه المؤامرة، وهذا يتناسب وتسمية ما نووا على إبرامه بالكيد، "ويظهر أن هذا القول كان مؤامرة سرية بينهم دون حضور إبراهيم، وأنهم دبَّروه ليبغتوه به خشية هروبه لقوله تعالى: "وأرادوا به كيدًا"[(٢)].

وفي تخصيص إهلاكه بالإحراق إشارة إلى ما انطوت عليه صدورُهم من حنقٍ وغلٍّ تجاه الخليل -عليه السلام-، وتعصبهم الأعمى لدعواهم رغم إثبات زيفها وفسادها بأكثر من دليل حسي وعقلي، إلا أن مكابرتهم للإذعان بالحق وعنادهم سلبهم عقولهم، وطغى على قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشدَّ قسوة، ومن ثَمَّ قرروا إهلاكه بأبشع العقوبات وأهولها وهي الإحراق، وليس أي إحراق، بل إحراق مبالغ فيه، فهو إحراق مُتْلِف، أشار إليه التضعيف في (حرِّقوه) لإفادة المبالغة والتكثير، وطول مدة الإحراق والتعذيب، كأنه إحراق بعد إحراق؛ مبالغة في التعذيب والإهلاك.

---

(١) ينظر: الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي، للإمام الهَمام أبو إسحاق أحمد المعروف بالثعلبي، ت الإمام أبي محمد بن عاشور: ٦/ ٢٨١، دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان، ط١ ٢٠٠٢م، وينظر: روح المعاني للألوسي: ٧/ ٦٧.

(٢) التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ١٠٥.

وقوله: (وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ) في محل نصب معطوف على جملة (حرِّقوه) مقول القول، وكأنهم أرادوا بذلك إلهاب حمية الحاضرين وكسب تأييدهم لتعلق الأمر بالمساس بمقدساتهم، وذلك أن نصر الآلهة لا يكون إلا بإهلاك عدوها، وتأتي جملة التذييل منسجمة مع جوِّ الإلهاب وإثارة الحمية: (إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)، فالجملة مؤكدة لمضمون ما قبلها من التحريض على الخلاص من الخليل -عليه السلام- ، والحث على ذلك، والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: إن كنتم فاعلين النصر لآلهتكم فحرِّقوه، وتقييد الشرط بـ(إنْ) دون (إذا) مع أنهم عازمون كل العزم على الفعل، مصرُّون عليه إصرارًا شديدًا، بدليل مجيئ فعل الشرط ماضيا (كان)؛ تأكيدا لإمضاء العزم على إهلاكه، وتصويرا لرغبتهم الأكيدة في حصوله، بحيث لا تلبث أن ترى إحراق إبراهيم -عليه السلام- قد حدث بالفعل، وصار ماضيا مطويا، فمقتضى الظاهر التقييد بـ(إذا)، إلا أنّ تقييد الشرط بـ(إنْ) أصاب كَبِدَ المعنى؛ إذ نزلوا قومهم منزلة المتردد في حصول الفعل أو القيام به؛ لإثارة حميتهم، وحثهم على إمضاء الأمر بإحراقه وإهلاكه بأبشع العقوبات وأهولها.

ومما يؤيد بشاعة ما أرادوه من العذاب غير المسبوق ما ورد من تفصيل لصورة الإحراق في سورة الصافات، وكيفية إعدادهم لذلك، قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾(سورة الصافات/٩٧)، فليست نارًا عادية، بل جحيمًا كما سمُّوها هم، نظرًا لهولها، وشدة وهجها، وطول مدة اشتعالها.

المطلب الثالث: تأييد الله عز وجل لنبيِّه، وردُّ كيد الكائدين.

أضـرم الطغاة نارًا عظيمةً وألقوا فيها الخليل -عليه السـلام- ولكن أمر الله كان فوق أمرهم، وقدرته قاهرة عليهم، فنجَّاه الله -جلَّ وعلا- وردَّ كيدَهم في نحورهم، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(سورة الأنبياء/٦٩).

الجملة مسـتأنفة اسـتئنافًا بيانيًا، إذ جاءت جوابًا عن تسـاؤل تقديره: ماذا حدث لإبراهيم-عليه السـلام- بعد هذا التآمر الجماعي؟ فالفصـل لشـبه كمال الاتصـال، وفي الكلام حذف أكثر من جملة، والتقدير: فأضـرموا النار، فألقوه فيها، فقلنا يا نار كوني بردًا وسـلامًا على إبراهيم، ومثل هذا الحذف كثير في القصص القرآني؛ لتسليط الضوء على العناصر المهمة في القصة، وإبرازها واضحة جلية.

وهنا انتهى الحوار بين إبراهيم -عليه السـلام- وقومه، وتدخلت عناية الله -عزّ وجلّ- لنصـرة نبيه، وتأييده، فأنجاه من كيدهم، وأعزه وأظهره عليهم، والقائل: قيل هو جبريل -عليه السـلام- وقيل: هو الله -عزّ وجلّ- وهذا هو الأقرب والأرجح؛ فالمقام مقام عظمة وقوة وهيمنة وسطوة.

وقد بُنيت الجملة على الإيجاز المناسـب لسـرعة التلبية والامتثال، كما يُلْمَحُ في الآية عِزُّ الربوبية واضـحًا جليًا من أولها إلى آخرها؛ إذ بدأت الآية بفعل القول (قلنا)، ماضـيًا مسـندًا لضـمير العظمة، فالقول هو قول رب العزة، فقوله حق، ووعده بنصـر رسـله والذين آمنوا حق، ثم نادى (يا نار) والمنادَى ينبغي أن يسـمع ويعقل ويلبي، خاصـة أن الأمر هنا حقيقي، ثم أمر النار بأمره الكوني (كن فيكون)، والأمر حقيقي -أيضـا-، وهذا يقتضـي أن يكون المأمور عالمًا بما يؤمر به، كل هذا يدل على أن النار سمعت وعقلت وامتثلت؛ لأنها تعلم عظمة القائل سبحانه وتعالى.

ومن مظاهر العظمة كذلك أن ناداها باسـم الجنس مجردة (نار) دون الإضـافة (يا ناري أو يا نار الدنيا) أو غير ذلك؛ للدلالة على عظمة المنادِي وعزَّتِهِ، ولم يقل: (يا أيتها النار)، دلالة على أنها واعية منصتة للأمر، وليست غافلة فتحتاج إلى تنبيه، ثم الأمر بالفعل (كنْ)، وحذف المضاف (ذات) وإقامة

المضاف إليه (برد وسلام) مقامه، فالمعنى: "أي كوني ذات برد وسلام، أي ابردي بردا غير ضار"[(١)]؛ وذلك للمبالغة في سرعة الاستجابة والامتثال من النار لأمر ربها، فسرعان ما خرجت عن طبعها وهو الحر الشديد المصاحب للإحراق على الفور، واستحالت بردًا وأمنًا وأمانًا على إبراهيم -عليه السلام- ، فقوله: (سلاما) احتراس؛ فلو لو لم يقل: (سلاما) لهلك إبراهيم -عليه السلام- من البرد؛ "لأن البرد مؤذ بدوامه ربما إذا اشتد، فعقب بذكر السلام لذلك"[(٢)]، أو ربما هلك -عليه السلام- من الاختناق بالغازات الصادرة من أثر الاحتراق.

ومن الدقة اللفظية في الآية -أيضا- القيد بقوله: (على إبراهيم)؛ أي كون البرد والسلام في النار عليه هو خاصة دون غيره، ولولا ذلك لما أحرقت نار بعدها، ولفقدت طبيعتها، وصارت النار باردة مطلقا[(٣)]، وهذا من معجزات أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام- التي أيده الله بها، فردَّ كيدهم نصرًا له عليهم.

فأرادوا به كيدًا، فجعلهم الله أخسر الخاسرين، قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾(سورة الأنبياء/ ٧٠)، والمعنى كما فسره البيضاوي: "أرادوا المكر به في إضراره فجعلهم الله أخسر من كل خاسر لمَّا عاد سعيهم برهانًا قاطعًا على أنهم على الباطل، وإبراهيم على الحق"[(٤)]، وفي تسمية عزمهم على إحراقه كيدًا دليل على أنهم دبَّروا ذلك خُفية حتى لا يعلم إبراهيم -عليه السلام- فيهرب، فدلَّ التنكير على أنه كيد عظيم، وتقديم الجار والمجرور (به) على المفعول به يفيد

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي: ١٧/ ٦٨.

(٢) التحرير والتنوير، للإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١٧/ ١٠٦.

(٣) ينظر البحر المحيط، لأبي محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، ت الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض: ٦/ ٣٠٤. بتصرف

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، ت محمد عبد الرحمن المرعشلي: ٤/ ٥٦، دار إحياء التراث العربي بيروت-لبنان.

القصـــر، فقصـــر إرادتهم الكيد والمكر عليه وإلحاق الضـــرر به هو دون غيره قصـــرًا حقيقيًا تحقيقيًا، ولنتأمل كيف أفادت الباء (به) الدالة على المصاحبة والملابسة لصوق الإضرار به هو دون غيره، فهو في صـحبته، يلازمه لا ينفك عنه، فجسـدت الباء المكر الدفين في مطاوي نفوسـهم تجاه إبراهيم -عليه السلام-، وحولته إلى شيء ملموس محس تراه العيون، وتلمسه الأيدي.

فجاء ردُّ المولى -عزَّ وجلَّ- أسرع من بلوغ ما أرادوا، وجعلهم أخسر من كل خاسر، فالفاء رتبت حكم المولى على إرادتهم بلا مهل ولا ريث، فأعزَّ الله نبيه ونصــره عليهم، وجعل محاولة الإضــرار به حجة أخرى عليهم، والتعبير عن خســارتهم وخيبتهم باســم التفضـيل يفيد أنها خيبة عظيمة؛ إذ صــار الأمر بنجاة إبراهيم -عليه السلام- معجزة عظيمة، وتأييدًا أقوى له ولدعوته.

وقد جاء في ســورة الصــافات التعبير عن خيبتهم بجعلهم الأســفلين، قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْـفَلِينَ﴾ (سـورة الصـافات/ ٩٨)، وجاءت في سـورة الأنبياء (الأخسـرين)، قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾، وكل كلمة ناسبت سياقها، وانسجمت تمام الانسجام مع مقام الكلام؛ ذلك أن في سورة الأنبياء كادهم إبراهيم -عليه السـلام- فحطَّم أصـنامهم، وهم أرادوا الكيد له أيضـا فقرروا إحراقه، وجعلوا نصـرة أصـنامهم سـببا لإهلاكه كما زعموا، فرد الله كيدهم ونصـر نبيه -عليه الســلام-، وأخرجه من النار ســالما، فلم يتحقق لهم مرادهم من النصــرة عليه والخلاص منه، فناسب التعبير عن خيبتهم وفشلهم في تحقيق مرادهم بالخسران، أمّا في سورة الصافات، فقد ذكر الله -عز وجل- أنهم لما أرادوا إحراقه بنوا له بنيانا عظيما ليلقوه من أعلاه ليقع أسفل النار المتأججة، فنجَّاه الله بحوله وقوته، وجعلهم هم الأســفلين في الدنيا والآخرة، وفي بيان ذلك يقول الكرماني: "قوله: "وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين"، وفي الصافات "الأسفلين"؛ لأن في هذه السورة كادهم إبراهيم عليه الســلام بقوله:" لأكيدنَّ أصــنامكم"، وكادوا هم إبراهيم بقوله: "وأرادوا به كيدا"، فجرت بينهم مكايدة، فغلبهم إبراهيم لأنه كسَّــر أصــنامهم، ولم يغلبوه؛ لأنهم لم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فكانوا

هم الأخسرين، وفي الصافات أججوا نارا عظيمة، وبنوا بنيانا عاليا، ورفعوه إليه، ورموه منه إلى أسفل، فرفعه الله، وجعلهم في الدنيا الأسفلين، وردهم في العقبى أسفل سافلين"(١).

ففي سورة الأنبياء لما تقابل الكيدان -كيد إبراهيم (عليه السلام) لأصنامهم وكيدهم له بإحراقه- عاد عليهم كيدهم بالخسارة، ونصر الله نبيه -عليه السلام- فناسب ذلك لفظ (الأخسرين)، أما في سورة الصافات فقد رموه -عليه السلام- من فوق البناء العالي إلى أسفل النار المستعرة، فجعل الله -عزَّ وجلَّ- جزاءهم من جنس عملهم، وجعلهم في الدنيا من الأسفلين، وردهم في الآخرة أسفل سافلين، وأعلى نبيه -عليه السلام- ورفعه وأظهره عليهم.

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، ت عبد القادر أحمد عطا: ١٢٩، ١٣٠، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط١ ١٩٨٦م.

الخاتمـــة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

بعد الانتهاء من هذا البحث المتواضع نخلص منه إلى أهم النتائج:

-يجب على الداعي إلى الله تعالى التحلي بالصبر، والثبات على الحق، واليقين بنصر الله، وألا يكسر من عزمه قوةُ الباطل وبطشه، ولا يجعل لليأس سبيلا إلى نفسه، ولو تكالب عليه الناس جميعا، فنصر الله واقع لا محالة.

-لا بدّ من إرساء دعائم الحوار في كل شأن من شؤون حياتنا، بداية من الحوار الأسري، والحوار بين أفراد المجتمع الواحد، والحوار بين أفراد المجتمع وقادتهم وصولا إلى الحوار بين الأمة المسلمة وغيرها من الأمم؛ لأن الحوار يخلق نوعا من التفاهم، والقدرة على احتواء الآراء رغم اختلافها بين الأفراد والجماعات، فهو الحل الأمثل للعديد من المشاكل التي تواجه المجتمعات والأمم.

-من أهم أهداف الحوار وأسمى غاياته أنه وسيلةٌ لنشر الدعوة وبسطها، وردُّ شبهات المعاندين، ومحاولة إقناعهم بالحجة والدليل الواضحين، فقد كان الحوار هو الأداة الأولى للأنبياء وأتباعهم في نشر الدعوة، والوسيلة الأمثل في عرض مسائل الدين وبسطها.

-قد حَفَلت الآيات الكريمات التي اشتملت على الحوار الذي دار بين الخليل إبراهيم -عليه السلام- وقومه بالعديد من السمات والأساليب البلاغية التي تكررت، وكان لها دور مؤثر وبارز في تشكيل الموقف الحواري، وهي:

- **التوكيد**

كان للتوكيد حضور كبير تكرر في أكثر من موضع، حيث جاء مناسبا لمقام كل طرف من أطراف الحوار وحاله، وكاشفا عن معتقد كل منهما، ومدى قناعته بدعواه قوة وضعفا؛ فتكرار التوكيد في محاورة إبراهيم -عليه السلام- مع قومه يكشف عن نفس مؤمنة قوية واثقة بوعد الله -عزّ وجلّ- لها يقين ثابت، لا يزعزعه بطش قوىً غاشمة، أو طغيان غطرسة ظالمة جاهلة، أما التوكيد في جانب جدال

قومه فقد تكرر أيضـــا، فكشـــف عن تصـــلبهم في كفرهم، وثباتهم فيه، وتحجر عقولهم رغم إقرارهم بالحق إلا أن إصرارهم على العناد والمجادلة بالباطل غلب على عقولهم، وطغى على قلوبهم.

- **التقديم والتأخير**

تردد في الآيـات تقـديم بعض المتعلقـات على بعض، وأكثرهـا تقـديم الجـار والمجرور على بعض متعلقات الجملة الحوارية؛ لخدمة المعنى والأغراض البيانية، من تلك الأغراض أنَّ الجار والمجرور المقدم محل الإنكار والعناية من الكلام كقوله: (التي أنتم لها عاكفون)، وقوله: (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شـيئًا ولا يضـركم)، أو لأنه أوثق صـلةً بغرض الكلام كالثناء والتكريم في قوله: (وكنَّا به عالمين)، أو توكيد الخبر وتقريره كقوله: (وأنا على ذلكم من الشـاهدين)، أو القصـر كقوله: (وأرادوا به كيدًا).

- **الاستفهام**

للاستفهام دوره البارز في الإقناع، وإقامة الحجة على الخصم، ودحض دعواه، مما يؤكد أن الدعوة إلى الله -عز وجل- ليســت تلقينا، ولم تُفرض بالقوة أو الإكراه، بل بالحجة والدليل والإقناع، وقد خرج الاستفهام في جميع صوره الواردة في الآيات الكريمات موضوع البحث عن معناه الحقيقي إلى مقاصد بلاغية استدعى المقام كلا منها

- **الفصل**

يُعدُّ الفصـل بين الجمل من أبرز السـمات البلاغية السـائدة في الآيات الكريمات موضـوع هذا البحث؛ ذلك أن الجمل كلها حوارية، فهي من باب الاسـتئناف البياني، أو كمال الاتصـال؛ لكون بعضـها مؤكدًا لمضــمون ما قبله، فجاء الفصــل بين الجمل ملائما متناسـبا لمضــمون الحوار والنقاش الذي عبر عنه أسلوب الآيات، فبين الجمل ارتباط وثيق، وتلاحم وطيد؛ لأن الحوار سلسلة متصلة الحلقات، بعضها مترتب على بعض.

- **الإيجاز بالحذف**

يغلب على الجمل الحوارية الإيجاز بالحذف، والذي جاء في الآيات تارة بحذف الكلمة، وتارة بحذف الجملة، وتارة بحذف أكثر من جملة، وهذا هو الغالب؛ ذلك للتركيز على العناصر الأساسية في الحوار أو القصة، وتسليط الضوء عليها وتوضيحها، وحذف الجزيئات والتفاصيل التي تُفهم من السياق، وقرائن الأحوال، اعتمادا على مشاركة المتلقي في فهم المراد.

- **الاستعارة**

من أبرز خصائص الأسلوب الحواري الاستعارة، والتي كان لها حضور ملموس، وقيمة بيانية أثرت الجمل الحوارية بشكل واضح، فجسدت المعاني المجردة، وصوَّرتها حية مشاهدة، مما ساعد في تقوية المعنى وتوكيده في ذهن المتلقي.

- **التعريض**

استخدم إبراهيم -عليه السلام- التعريض بدلا من أسلوب السخرية الصريح الذي لا يليق بأنبياء الله والداعين إليه، فسلك (عليه السلام) -في إثباته لقومه عبدة الأصنام أنهم بتشبثهم بدعواهم الفاسدة مدعاةٌ للسخرية والتهكم- أسلوبَ التعريض، وأنهم حينما أرادوا إقامة الحجة عليه حاولوا أن يقرروه بتحطيم أصنامهم؛ لإنزال العقوبة به، أقام هو عليهم الحجة فأجابهم مُعَرِّضًا بغبائهم (بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون)، فباغتهم بطلب تعجيزي لا يمكنهم تجاوزه، ومهما كان ردُّ فعلهم فسيكون دليلا دامغا على صحة دعواه وبطلان دعواهم، فأقروا بالحق كارهين إذ لا مفر منه.

ثبت المصادر والمراجع

-القرآن الكريم.

١ - الأصوات اللغوية، د إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥ ١٩٧٥م.

٢- أصول الحوار وآدابه في الإسلام، صالح بن عبد الله بن حميد، دار المنارة للنشر والتوزيع بجدة، ط١ ١٩٩٤م.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، ت محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد ابن محمد، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ط١ ٢٠٠٣م.

٥- البحر المحيط، لأبي محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، ت الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط٣ ٢٠١٠م.

٦- البرهان في توجيه متشابه القرآن، تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، ت عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط١ ١٩٨٦م.

٧- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكبري، ت علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، ١٩٧٦م.

٨- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي، دار الرشيد دمشق – بيروت، ط٣ ١٩٩٥م.

٩- دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ت محمود محمد شاكر، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر، ط٣ ١٩٩٢م.

١٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان.

١١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي محمد الشوكاني، ت يوسف الغوش، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط٤ ٢٠٠٧م .

١٢- القاموس المحيط، للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط٨ ٢٠٠٥م.

١٣- قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ت مصطفى عبد الواحد، مطتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة، ط٣ ١٩٨٨م.

١٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت – لبنان، ط٣ ٢٠٠٩م .

١٥- الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي، للإمام الهَمام أبو إسحاق أحمد المعروف بالثعلبي، ت الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان، ط١ ٢٠٠٢م.

١٦- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ت د عدنان درويش/ ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢ ١٩٩٨م.

١٧- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، ت د عبد العظيم الشناوي، دار المعارف ١٩٧٧م.

١٨- معجم التعريفات للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

١٩- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.

٢٠- مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصـفهاني، ت صـفوان عدنان داوود، دار القلم دمشـق، ط٤ ٢٠٠٩م.

٢١- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسـم الحسـين بن محمد المعروف بالراغب الأصـفهاني، ت محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت- لبنان.

٢٢- مفهوم الحوار في القرآن الكريم وانعكاسـاته التربوية (رسـالة ماجسـتير)، محمد عدنان علي القضاة، إشراف أ.د حسن أحمد الحيارى، جامعة اليرموك، كلية التربية قسم الإدارة، ٢٠٠٣م.

٢٣- من بلاغة القرآن، د أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

فهرس الموضوعات

المحتويات